موت الفلاح محمود

... ومن الظلمة ، عبر الحقل ، غنّت قُبّره
وخبت في مسجد القرية ، اضواء الشموع
وتدلى رأسُ «محمودٍ» : «ينابيع الربيع
أمّيَ الأرض ! ينابيع الربيع
نضبت في قلبيَ الباكي ، الصديع
وزهورُ المقبره
وحجار القنطره
في طريق الحقل ما زال ، وما زال صديقي
«يوسف الأعرج» يستجدي ، كشحاذٍ عريق
ورغيفُ الخبز ، والمحراث في زاوية الكوخ العتيق

والدروب الصامته
وظلال السنديان المائته
حول رأسي – أمّيَ الأرض – تحومُ
والنجومُ
واغاني طفلتي الصغرى ، تحومُ
حول رأسي .
وبنفسي
مسجدُ القرية ، والمحراثُ ، والحقل يموتُ
وصديقي «يوسف الأعرج» والصمت المقيتُ

بيروت

عبد الوهاب البياتي

ويلاحظ في آثاره اتجاه الى الابحاث اللغوية والأدبية . وهو الاتجاه الذي سار فيه انسياقاً مع المهنة التي اختارها ، والذي اوصله الى عضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٤٧ . وهذه الآثار – وان كانت تمثل ناحية من نواحي نشاطه – لا تعطي صورة كاملة عن شخصيته . فأدبه الذي يصور نفسه الانسانية النبيلة ، المتعالية عن السفساف والصغار ، المبرأة من الهوى والضلال ، المفعمة بنوازع الحب والخير المستر شذة بنور العقل في سلوكها ، هذا الأدب عاش معه ومات معه . ولم ينقص السكاكيني البيان لتصوير ذاته ونزعاته المثالية . ولم تعوزه الشجاعة الادبية . ولكن هي طبيعة الظروف التي احاطت به شاباً وشيخاً ، وحتمت عليه ان يواري آماله وآلامه ، ويكبت نزعاته ، ويكبح ثوراته العقلية والنفسية . ونقول انصافاً للتاريخ : إن السكاكيني ضحى كثيراً من طموحه ورغباته ، وألزم نفسه كثيراً من القيود ، في سبيل اداء واجبه نحو أسرته التي احبها حباً بالغ الحد .

ومع ذلك كله كان السكاكيني مربياً ومعلماً من الطراز الاغريقي القديم . كانت أحاديثه دروساً ، ومحاوراته حكماً وعبراً ، ومجالسه حلقات للمناظرة ، وهؤلاء المعلمون يطبعون نفوسهم في نفوس تلاميذهم ويكتبون آراءهم على صدورهم . ولا اعرف احداً جالس السكاكيني ، ولو مرة ، الا خرج بزاد من المثل الانسانية الكريمة والأدب الرفيع . فأي اثر مطبوع او مخطوط اعظم من هذا الأثر العظيم المستور ؟

لو ظهر السكاكيني في امة تعرف للمفكر مقامه ، وفي ظروف تكتمل فيها المواهب ، وفي احوال تكون فيها تكاليف الحياة هينة يسيرة ، لرأينا فيه كاتباً من طراز الكتاب الغربيين المبرّزين . ومع ذلك فان النسمات التي هبت من اعماق هذه النفس الخيرة الكريمة تملأ جونا ، وستملأه مدة طويلة من الزمن ، عطراً شذيا تطيب في جوه الحياة المملوءة بالخبائث . وهذه رسالة الأديب الحق التي حملها السكاكيني مدة تزيد عن نصف قرن .

اسحق موسى الحسيني